

الشكر والحمد لرب العالمين



الشكر هو الاعتراف بالجميل، والثناء على المنعم لحسن صنيعه وجميل معروفه، وهو مقابل المعروف بمثله، قال تعالى: (فَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ رُجُلًا مَلْعُونًا إِذْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَالُغٌ مِنْ السِّنِّ) (البقرة / 152). (ومَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُنْفِذْهُ مِنْهَا وَسَنَجْزِي السَّاعِيْنَ) (آل عمران / 145). قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك». «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد».

وجاء عن الإمام الصادق (عليه السلام): «شكر النعمة اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل الحمد لله رب العالمين». «و«شكر كل نعمة وإن عظمت أن يحمد الله عز وجل»». وجاء رجل إلى الإمام الصادق (عليه السلام)، فقال له: «جعلت فداك، علّمني دعاء جامعاً فقال: الحمد لله لا يبقى أحد يصلي إلا دعا لك بقوله - سمع الله لمن حمده -». وجاء عنه (عليه السلام): «مَنْ قال أربع مرات إذا أصبح: الحمد لله رب العالمين، فقد أدّى شكر يومه، ومَنْ قالها إذا أمسى، فقد أدّى شكر ليلته». «حقّ الله في العسر: الرضى والصبر، وحقّه في اليسر: الحمد والشكر».

وجاء في الدعاء المأثور:

«إلهي أذهلني عن إقامة شكرك تتابع طولك، وأعجزني عن إحصاء ثنائك فيض فضلك، وشغلني عن ذكر محامدك ترادف عوائدك وأعياني عن نشر عوارفك توالي أياديك». «إلهي تصاغر عند تعاطم آلائك شكري، وتضاءل في جنب إكرامك، إياي ثنائي ونشري، جللتني نعمك من أنوار الإيمان حلاً، وضربت عليّ لطائف برّك من العز كلاً، وفلّدتني منك قلائد لا تحل، وطوّقتني أطواقاً لا تفل، وآلؤك جمة، ضعف لسانني عن إحصائها، ونعمائك كثيرة قصر فهمي عن إدراكها، فضلاً عن استقصائها، فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إياك يفتقر إلى شكر، فكلّما قلت لك الحمد وجب عليّ أن أقول لك الحمد».

وجاء عن الإمام علي بن الحسين (عليه السلام): «سبحان مَنْ جعل الاعتراف بالنعمة له حمداً، سبحان

مَنْ جعل الاعتراف بالعجز عن الشكر شكراً».

فالشكر إذن تعبير عن إحساس نفسي، وقناعة فكرية، يقصد بها مقابلة الإحسان والجميل المُسدى إلى الشاكر من قبل المحسن وصانع الجميل، بما يماثله من إحسان ومعروف، فهو اعتراف من الشاكر بأنّه مدين للمنعّم والمحسن، وأنّه لا بدّ وأن يعبّر عن هذا الاحساس بالإحسان والجميل، فيعلن عن الامتنان بما يرضي صانع الجميل والمتفضل بالعطاء، ينشأ هذا الشعور في نفس الشاكر كإحساس أخلاقي ووجداني يلح عليه ويدعوه إلى مقابلة الإحسان بالثناء والاعتراف، لأنّ النفس البشرية تخضع في سلوكها إلى موازنة كونية منطقية تقضي بأنّه ما من شيء يحدث في طرف في هذا الوجود إلّا ويعادله شيء، أو يترتب عليه شيء آخر.

جاءت الآيات والأحاديث تشريع ذلك وتحثّ عليه وتؤكدّه: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الحمد / 2)، (فَإِذْ كُتِرُ وُنِي أَذْكَرُ كُومٍ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) (البقرة / 152). «شكر كلّ نعمة وإن عظمت أن يحمد الله عزّ وجلّ»، «حقّ الله في العسر: الرضى والصبر، وحقّه في اليسر: الحمد والشكر». فالشكر مظهر من أجلّ مظاهر الذكر وعدم النسيان، لأنّ الشاكر لا يكون شاكراً إلّا حين تتشخص أمامه أسباب الشكر ودواعي الامتنان، فهو ذاكر يلهج بنعم الله، ويسبّح بحمد المنعم ومعروفه: (وَأَمَّا مَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (الضحى / 11).

وليس القلب أو اللسان وحدهما بقادرين على الشكر، بل وللشكر مرتبة أخرى هي أرقى من مرتبة الإحساس والتعبير بالكلمة والذكر باللسان، وهي مرتبة الفعل وتجسيد الشكر عملاً وواقعاً، يشهد بصدق الذكر وعدم نسيان المعروف، عن طريق استعمال النعم التي أنعم الله بها على الإنسان في الطاعة وفعل الخير والمعروف، وإسداء الجميل للآخرين، وتجنّب المعاصي والشور، قال تعالى: (اعملوا آل داود شكراً وقلائل من عبادي الشكور) (سبأ / 13).

فالشاكر الذاكر لا يستعمل نعمة الله التي أنعم بها عليه من مال وعلم وقوّة وجاه وخيرات، إلّا بما يوافق إرادة الربّ المنعم، وصانع الجميل المتفضّل، بشكل يظهر معروفه وإحسانه، ليكون الإنسان بذلك قد أدّى شكر المنعم، وملا جانب الطرف الإنساني بالعرفان والامتنان، كما أرشدته قواعد التشريع، وقيم الأخلاق، قال أبو عبداً (عليه السلام): «شكر كلّ نعمة اجتناب المحارم». لذا كان الذاكر حقّاً هو الشاكر لنعمه، المعترف بإحسانه وجميله، المعبّر عن هذا الإحسان والجميل بكلّ وسائل التعبير البشرية الممكنة، من إحساس وقول وعمل، مع إيمان الشاكر بأنّ الإنسان لا يستطيع أن يؤدّي حقّ الشكر، لأنّه يقف دوماً في موقع الافتقار وتلقي الفيض والعطاء: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) (الفتح / 10)، فهو حتى عندما يشكر الله سبحانه، ويريد مقابلة نعمة يجد نفسه مطوّقاً بفضل جديد، وهو ثواب الشكر، وجزاء الذكر: (وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (آل عمران / 144). وهكذا يبدأ إحساس جديد في نفس الشاكر الذاكر، فكلّما أصاب نعمة، وأدّى شكرها، أُعطِيَ نعمة الثواب والرضى، وبذلك تبقى موازنة الأداء قاصرة في جانبها الإنساني، ويبقى الربّ المنعم هو المتفضّل الشكور.